الإشارة
في أصول الفقه

تأليف

الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون القاضي أبو الوليد سليمان
بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي القرطبي الباجي الذهبي
المتوفى ربيع الأول ٤٥٠ هجرية

تحقيق

عادل أحمد عبد الموجود — علي محمد عوض

مكتبة نزار مصطفى الباز
مكة المكرمة - الرياض

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة: الشامية - المكتبة ت ٥٧٤٩٠٢٢/٥٧٤٥٠٤٤
مستودع ٥٣٧٢٣٧٤٠ ص.ب: ٣٠١٩

الرياض - شارع السويدي العام المتقاطع مع شارع
كعب بن زهير - خلف أسواق الراجحي ص.ب: ٦٦٩٣٠
مكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ مستودع: ٤٢٢١٩١١ الرمز البريدي: ١١٥٨٦

كَلِمَةُ النَّاشِر

« رَجَاءٌ »

غَفَرَ الإِلَهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِرِ
وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعَافِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ
أَجْمَعِينَ وَمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

إلى عفو ربه

نزار مصطفى الباز

دراسةٌ تاريخيَّةٌ
حَوْلَ الْفَتْرَةِ الَّتِي عَاصَرَهَا الْمُؤَلِّفُ
الْحَالَةُ السِّيَاسِيَّةُ

● **تمهيد :**

وفدت على الأندلس سفارات عديدة من إمبراطور القسطنطينية وإمبراطور ألمانيا وملوك ليون ونبرة وبرشلونة ، وتعقد المعاهدات ، وتوطد العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية بينها ، وبين قرطبة (١) .

والجدير بالذكر أن رسل البابا يوحنا « الثانى عشر » وفدت على الناصر ؛ تطلب السلم ، والمودة بين الإسلام والنصرانية ، ولم يرسل إليها سفارته تلك إلا لاعتقاده بأن الناصر يمثل الزعامة الإسلامية فى ذلك الوقت فقد كانت الخلافة العباسية تسير فى طريق الضعف ، والخلافة الفاطمية لم تبلغ بعد قوة ازدهارها ، وتقدمها السياسى ، الحضارى (٢) .

وما من شك فى أن هذه الأحوال المستقرة ، وتلك السياسة الحكيمة - التى اتبعها حكام قرطبة فى القرن الرابع الهجرى قد حَوّلت الهزائم التى منيت بها البلاد أواخر عصر الإمارة إلى انتصارات رائعة وتحول تقهقر المسلمين إلى الجنوب إلى تقدم صاعد لهم نحو الشمال ، حتى أصبحت جميع مماليك «إسبانيا » النصرانية مجرد إمارات تابعة لحكام قرطبة .

---

(١) ابن نوفل المصدر نفسه ص ١١٢ المقرى ، « أزهار الرياض » جـ ٢ ص ٢٧٢ ، عنان دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول » جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، المقرى . المصدر نفسه، جـ ٢ ص ٢٥٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ - ١١٤ .

ورغم هذه الصورة الجميلة المشرقة « للأندلس » فى القرن الرابع الهجرى ، إلا أنه كان هناك ما يشير إلى حدوث انقلاب ، أو ثورة سوف تحدث بمجرد أن ينقضى عصر هؤلاء الحكام الأقوياء من بنى أمية وبنى عامر ، فقد كان لسياستهم بعض الجوانب السلبية التى لم تظهر فى عهدهم ؛ نظرًا لقوة شخصيتهم ؛ ولقدرتهم الفائقة على القيادة والسيطرة على مقاليد الأمور .

ولما انهارت دولة « بنى عامر » عام ٣٩٩ هـ ، وقام الصراع بين خلفاء بنى أُميَّة الأواخر على كرسى الخلافة أثناء ما يعرف بالفتنة البربرية عام ٤٠٠ هـ ، ظهرت تلك الجوانب السلبية ، وقادت البلاد إلى ذلك المصير المحزن الذى انتهت إليه فى عصر ملوك الطوائف ، بعد أن تسببت فى سقوط الخلافة نفسها.

١ - تنحية العنصر العربى :

وكان « الناصر » قد اتبع سياسة أسلافه من أمراء بنى أمية فى تنيحة العنصر العربى من ميدان الزعامة والقيادة ، وجعل البارزين منهم مجرد عمال، أو ولاة لأطراف الدولة وثغورها ، مثل : بنو تجيب الذين ولاهم على الثغر الأعلى ، وسار على نفس الخط أيضًا فى الاستعانة بالعناصر الأجنبية فى الجيش والإدراة لسهولة السيطرة عليها ، وعدم تمردها ، وأدى ذلك إلى حرمان الدولة من ذوى الكفايات من العرب والبربر ، وإلى زرع الحقد والضغينة بينهم وبين الصقالبة الذين أصبحوا قوة يخشى بأسها .

وكانت هزيمة الناصر الوحيدة عام ٣٢٧ هـ مؤشرًا على ذلك أبدع الدلالة[١] وقد ظهر خطر الاستعانة بهذه العناصر الأجنبية أثناء فترات الاضطراب ، وقد برز هذا واضحًا أثناء الفتنة البربرية ، فقد أخذ عنصر

(١) كليليا سارنيلى ، مجاهد العامرى ، ص ٥ ، ١٥ ، انظر ص ٩٥ ، ٩٦ .

الصقالبة والبربر يتحكم فى تولية الخلفاء وعزلهم ، وقاموا بالاعتداء عليهم وقتلهم وتشريدهم ، واستبدوا دونهم بالحكم والسلطان ، وتحالفوا مع ممالك الطوائف والقضاء على الخلافة الأموية (١) .

٢ - تولية صغار السن الحكم :

كما وقع الأمويون فى خطأ آخر ، عندما قام الحكم المستنصر وولى ابنه الطفل هشام ولاية عهده ، ولما مات المستنصر تولى هشام الذى لقب بالمؤيد الخلافة ، وهو فى سن العاشرة ، مع أنه كان فى بنى أمية الكثير من الشخصيات البارزة القادرة على قيادة البلاد فى حزم وكفاية ، لكن الحكم المستنصر نظر إلى مصلحته الشخصية وارتكب هذا الخطأ السياسى ، مع أنه كان يعيبه على العباسيين فى المشرق ، وربما كانت نظرية توريث الحكم فى عقب الخليفة ، أو الأمير الحاكم وحده دون غيره من أخوته أو بنى عمومته أو أقاربه ، وهى النظرية التى سار عليها بنو أمية فى عصرى الإمارة والخلافة هى المسئولة عن ذلك ، وربما استندوا فى تلك النظرية إلى تلك النبوة التى تقول : « لا يزال ملك بنى أمية فى إقبال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الأخوة وتوارثوه فيما بينهم، فقد أدبر وتولى (٢) » ، ورغم ما حققته تلك السياسة فى استقرار أداة الحكم إلا أنه كان لها أيضًا آثارها فى زرع الضغينة والحقد فى نفوس باقى أفراد البيت الأموى ، وقد تعرض الكثير من أمراء وخلفاء بنى أمية إلى مؤامرات قام بها إخوانهم أو بنو عمومتهم بسبب الجلوس على العرش ، وربما كان أخطرها ثورة بنى إسحاق الأمويين الذين انضموا إلى ملك ليون وساعدوه على هزيمة الناصر فى موقعة

---

(١) ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٩٩ ، ابن سعيد . المصدر نفسه جـ ١ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٢) ابن حزم ، « نقط العروس » ، ص ٦٢ . ابن بسام المصدر نفسه ، ق ٤ ، جـ١ ، ص ٤٠ .

الخندق عام ٣٣٧ هـ ، كما أعطت هذه السياسة الفرصة لرجل مثل المنصور بن أبى عامر لأن يستبد بالدولة، ويحجر على الخليفة الطفل ، ويعمل فى الأمويين سيف التشريد والقتل [١] .

٣ - سقوط هيبة بنى أمية :

ومن عوامل الضعف التى ألمت بالأندلس الإسلامية ، وأثرت فى مستقبل البلاد وفى علاقتها بنصارى الشمال سياسة بنى عامر فى إضعاف الخلافة ، والاستبداد بالدولة ، وكانت سياسة المصنور بن أبى عامر تقوم حسبما أشرنا من قبل على مبدأ الاستبداد بحكم الأندلس ، واتباع جميع الوسائل والسبل إلى تلك الغاية وقضى بذلك على جميع العناصر المناوئة له من الصقالبة والعرب ، ومن القيادات السياسة والعسكرية مثل المصحفى الحاجب ، وغالباً الناصرى فارس الأندلس ، وبطلها ، كما قضى أيضًا على من يخشى بأسه من بنى أمية ، وكان يوصى ابنه حين حضرته الوفاة ألا يتوانى عن هذه الفئة وأن يأخذها بالشدة والعنف ؛ مما أدى إلى سقوط هيبة بنى أمية فى نفوس الناس ، وإلى ضياع مجدهم ونسيان الناس لهم [٢] ، وكان لهذه السياسة من اضطهاد بنى أمية وتشريدهم والاستبداد دونهم أثر شديد على من جاء بعد ذلك من خلفائهم إذ لم يحسنوا السياسة ، ونسوا أساليب آبائهم فى الحكم واصطناع الأنصار والأعوان، فقد تعصب سليمان المستعين للبربر ، واستعان هشام المؤيد بالصقالبة ، واستعان كلاهما بنصارى الشمال ، وبذلك تكرس

---

(١) ابن حيان برواية بسام . المصدر نفسه ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، ابن عذارى المصدر نفسه جـ ٣ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن حيان برواية ابن بسام « الذخيرة » ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، المقرى نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٣ ، ص ١٢٩ ابن الخطيب « أعمال الأعلام » جـ ٢ ، ص ٩٧ ابن عذارى . المصدر نفسه جـ ٣ ص ٧٥ ، ١١٣ ، ابن الخطيب « الإحاطة » جـ ١ ص ٥٢١ .

انقسام الدولة إلى حزبين متصارعين ، وهو الانقسام الذى ساعدت عليه سياسة بنى أمية فى الاستعانة بعنصر البربر [١] .

٤ - الصراع القبلى :

ومن الأخطاء الفادحة التى ارتكبها بنو عامر ، وأدت إلى وقوع الكارثة ، هو تطلعهم إلى منصب الخلافة ذاته ، وقد راودت هذه الفكرة المنصور بن أبى عامر لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عنها ، لأنها سوف تثير بنى أمية وتثير الشعب ضده كما سبق القول ، لكن ابنه عبد الرحمن شتجول أقدم على تلك الخطوة ، وأخذ البيعة لنفسه بولاية عهد هشام المؤيد ، وكانت غلطة العمر إذ تخلى عنه الجميع عندما قام محمد المهدى الأموى بالثورة ضده عام ٣٩٩ هـ ؛ ذلك لأن هذا الأمر كان يعنى تحويل الخلافة من المضرية (بنى أمية) إلى اليمنية (بنى عامر) [٢] ، وهذا يدل على أن الصراع القبلى لم يكن قد انتهى بعد من الأندلس رغم ما قام به الناصر والمنصور من توجيه ضربات قاسية للعنصر العربى بالذات مما يدل على أن المجتمع القبلى القديم لم يكن قد اختفى تمامًا كما يقول دوزى ، « ومنها » وأمها قيام دول الطوائف إلا تعبير عن هذا المجتمع إلى حد كبير ، فقد قامت تلك الدولة ملتفة حول أسرات عربية أو بربرية هنا وهناك ، وعادت تلك الأسرات إلى سياستها الأولى فى الصراع القبلى ضد بعضها البعض بعد أن زالت القوة المسيطرة التى كانت تتمثل فى بنى أمية ؛ مما أعطى الفرصة لنصارى الشمال الأسبانى من التدخل فى شئون الأندلس والسيطرة على ممالكها المتناحرة [٣] .

---

(١) ابن عذارى المصدر نفسه جـ ٣ ص ٧٥ ، ١١٣ .
ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٥٢١ .

(٢) ابن حيان برواية ابن بسام « الذخيرة » ، ق ٤ ، جـ ١ ص ٥٦ ، ق ١ جـ ١ ص ٥٨ ، ٨٦ ، ابن الكردبوس الاكتفاء فى « أخبار الخلفاء » ص ٦٧ ابن عذارى المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٦ ، ابن الخطيب « الأعمال » جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) ابن حزم « جمهرة أنساب العرب » ص ٤٦٦ ، ابن عذارى المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥ ، ابن الأبار . المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، المقريزى . المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٩ .

٥ - الانقسام فى صفوف الجند :

ومن عوامل الضعف أيضًا جند الأندلس وصراعهم على السلطان ، وقد وضع الأمويون والعامريون بذور هذا الانقسام عندما استعانوا بالموالى والصقالبة بالبربر فى الجيش والإدارة ، وأصبحت هذه العناصر تترقب فرصة ضعف أو اضطراب حتى تعمل لمصلحتها الخاصة ، وتصبح لها السيادة على البلاد ، وفيما يبدو لم تكن هذه العناصر مخلصة تمامًا للأمويين أو العامريين، فكثيرًا ما تآمر الصقالبة ضد بنى أمية فى عصر الإمارة والخلافة ، كما تآمروا أيضًا ضد بنى عامر وانتهزوا فرصة موت المنصور بن أبى عامر ، وقال قائلهم: هل كتب علينا أن نبقى فى حجر آل أبى عامر الدهر الداهر ، وكان واضح الفتى الصقلبى أسبق الجميع فى التخلى عن عبد الرحمن شنجول ابن أبى عامر عندما ثار ضده بنو أمية ٣٩٩ هـ [١] ، أما البربر فقد كانوا أسرع من غيرهم فى التخلى عن عبد الرحمن شنجول ، وقال له زعيمهم محمد بن يعلى الزناتى : إياك أن تغتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناتة والناس تبع لهم؛ وأدى ذلك إلى أن ظفر به محمد المهدى الأموى وقتله وقضى على دولة بنى عامر ، وكان تخلى البربر عن العامريين بهذا الشكل من الأشياء الملفتة للنظر، فالعامريون : هم الذين استقدموا البربر من الغرب الأقصى ، أو شجعوهم على النزوح إلى الأندلس ، ورفعوا من شأنهم حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس وأظهرهم نعمة وأعلامهم منزلة ، وأصبحوا قوة رئيسية تعتمد عليها الدولة فى حروبها وبقائها . فما الذى أغرق هؤلاء البربر بالتخلى عن بنى عامر [٢] ؟ يبدو أن البربر كانوا مثل الصقالبة غير مخلصين تمامًا لبنى عامر ،

---

(١) ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٤١٧ ، جـ ٣ ص ٦٨ - ٧١ ، ابن الخطيب . المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ المقرى . المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٦٤ كليليا سارنيللى المرجع نفسه ص ٢٩ ، ٣١ ، ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٦٧ .

فصهناجة كانت من ألد أعداء بنى أمية وبنى عامر معًا ، ولم تلجأ إلى الأندلس إلا بسبب الصراع بين زعمائها على أرض المغرب الأقصى ، وكانت تضمر الحقد للمنصور بن أبى عامر ؛ لأنه أخذهم بالشدة وطبق أحكام الشرع على من يستحق العقوبة منهم ، أما زناتة فكان ولاؤها للعامريين ، لكن سياسة بنى عامر فى قتل بعض زعمائهم ظلت فى أخلاصهم . هذا بالإضافة إلى أن البربر جند مرتزقة ، وهذا النوع من الجند لا يدافعون عن وطن ينتمون إليه ، بل يدافعون إذا دافعوا عن حاكم يضمن لهم مصالحهم وأرزاقهم ، فإذا رأوا أن مصلحتهم مع شخص آخر انضموا إليه دون تردد (١) ، وهذا ما حدث فعلاً ، فعندما رأوا عبد الرحمن شتجول يتخبط فى سياسته ، ورأوا قيام أهل قرطبة مع المهدى ضده تحول ولاؤهم عنه وأسلموه إلى حتفه خوفًا على أموالهم وأهليهم الذين يعيشون فى قرطبة ، وبذلك تم القضاء على دولة بنى عامر ، وانقسم جند الأندلس إلى حزبين متصارعين على السلطان الأندلسيون، وعلى رأسهم الصقالبة فى جانب والبربر فى جانب آخر ، وحاول كل فريق أن يصل إلى السلطة مستترًا وراء أحد الخلفاء من بنى أمية ، مما أوقع البلاد فى أتون حرب أهلية جرت عليها الخراب والدمار (٢) .

من هذا يتضح لنا مبلغ ما ارتكبة بنو أمية وبنو عامر من خطأ عندما اعتمدوا اعتمادًا كليًا على تلك العناصر الأجنبية ، وأهملوا العنصر العربى وأهل البلاد الأصليين من المولدين وغيرهم ، وكانت تلك العناصر تلتزم الهدوء والطاعة طالما كان الحاكم قويًا ، وعند الضعف ، أو فى فترات الاضطراب كانت تقوم بدورها المخرب وتستبد بالبلاد ؛ مما هيأ الفرصة للاستعانة بملوك أسبانيا النصرانية كى يتداخلوا فى شئون الأندلس الداخلية ويبسطوا سلطانهم عليها .

---

(١) ابن الكردبوس . المصدر نفسه ص ٦٧ ، ابن عذارى جـ ٣ ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٦٨ .

(٢) ابن بسام : المصدر نفسه ق ٤ ، جـ ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٦٧ .

٦ - استغلال ملوك أسبانيا النصرانية الوضع لصالحهم :

ترتب على سوء الأحوال الداخلية أن استثمر هؤلاء هذه الفرصة ، مما نجم عنه ضعف الجبهة الداخلية فى تلك البلاد إلى حد كبير ، وقد حدث ذلك منذ وقت مبكر عندما غضب الناصر على أقربائه من بنى إسحاق بن أمية ، وقام بقتل زعيمهم أحمد بن إسحاق بسبب تآمره عليه ، واتصاله بالفاطمين ، وتحريضه لبنى تجيب على الثورة ضد الناصر ، ولما تخلص الناصر من ذلك الثائر فَرّ أخوه أمية بن إسحاق إلى « شترين » فى غرب « الأندلس » ورفع لواء الثورة ضد الناصر ، وانتهز ردمير راميرو الثانى ملك ليون الفرصة ، واتصل به واستقدمه وعينه وزيرًا ، وأشركه فى حرب ضد الناصر وأعطاه أمية معلومات ثمينة عن قوات الناصر قبل المعركة ، ودله على عورات المسلمين مما سهل له النصر على الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ ، ٩٣٨م[١] ، ولم تكن ثورات طليطلة المتكررة ضد الخلافة الأموية إلا بتشجيع من نصارى الشمال كما حاول كونت قشتالة أن يستغل العداء الذى نشب بين المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الله ، ولما تآمر هذا الابن العاق على أبيه ، وانكشفت مؤامراته ، وخاف على حياته فر إلى كنت قشتالة ، وفى عصر قوة الخلافة الأموية لجأ نصارى الشمال الأسبانى إلى أسلوب آخر للنيل من قوة الجبهة الداخلية فى الأندلس ، وذلك عن طريق المصاهرات التى عقدوها مع الأسرات الحاكمة فى الثغور الإسلامية من المولدين من بنى قسى ، وبنى الطويلة ، وعلى سبيل المثال فقد صاهر فرتون الطويل صاحب وشقة من أعمال الثغر الأعلى شانيحة بن غرسية ملك نبرة ، واشترك معه فى غزوة مطونية عام ٣٠٦ هـ ضد الجيش الناصر [٢] ، وطبيعى أن هذا الرجل وأمثاله

---

(١) العذرى المصدر نفسه ص ٥٩ ، ٥١ ، ابن الأثير « الكامل » ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن حزم . المصدر نفسه ص ٤٥ ، ٦٨ ، ٦٩ .

كان يتردد على قرطبة لعلمه أن هناك من يحميه ، ويمد له يد العون والمساعدة من أصهاره ملوك الشمال ، وأن هناك من يستقبله لاجئًا إليه من هؤلاء الملوك عند الضرورة ، وقد تكرر هذا كثيرًا ؛ حتى أن نهاية آخر أمراء بنى قسى حكام تطيلة فى الثغر الأعلى ، كانت عند أصهاره من أمراء أسبانيا النصرانية ، وكان الأمير القسوى قد لجأ إلى صهره هذا ؛ طمعًا فيما كان معه ، ومع أصحابه القسويين من أموال وسلاح وحلى ، فغدر بهم وقتلهم عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م[١]، وكان تدخل ملوك أسانيا النصرانية قويًا ، وأكثر فاعلية أثناء الفتنة البربرية فى مطلع القرن الخامس الهجرى فقد انتهزوا فرصة الصراع بين أمراء بنى أمية الأواخر على تولى منصب الخلافة ، وساعدوا فريقًا ضد الآخر . واستعانة ملوك بنى أمية الأواخر بملوك أسبانيا النصرانية لا يدل إلا على مدى ما وصلوا إليه من ضعف ، وهوان ، وفقدان للحمية الدينية ، والعزة القومية ، وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية على هذا النحو فى شئون الأندلس الداخلية مما أضعف من الجبهة الداخلية ؛ وجعل مسلمى الأندلس يضرب بعضهم بعضًا، وأدى إلى تعميق الانفصال ، والأحقاد بينهم حتى أصبحوا لقمة سهلة - يستطيع نصارى الشمال التهامها فى أى وقت يريدون[٢].

٦ - الصراع الطبقى الأندلسى :

ومن عوامل الضعف التى أثرت فى الجبهة الداخلية ، وكانت لها آثارها على العلاقة بين مسلمى الأندلسى ، ونصارى الشمال الأسبانى : طبيعة الأندلسيين أنفسهم وتباين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان هناك ما يشبه الصراع الطبقى بسبب التفاوت الحاد فى الدخول ، فهناك طبقة أرستقراطية حاكمة مسيطرة لها الغنى والثروة والنفوذ ، تلتف حولها بعض

---

(١) العذرى . المصدر نفسه ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) ابن عذارى . المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٨٢ - ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤ - ٩٦ ، ابن بسام « الذخيرة » ق ١ ، جـ ١ ص ٢ ، ٣٠ ، ٣١ .

الأسرات الثرية أمثال : أسرة بنى عبدة وبنى شهيد وجهود وفطيس ، وهناك طبقة متوسطة اغتنت بفضل نشاطها فى الزراعة والتجارة والصناعة ، وهناك طبقة الحرفيين والعمال العامة ، وكانت تعيش فى مستوى منخفض ، فالعامل كان يكره صاحب العمل ، والطبقة الوسطى كانت تحسد طبقة النبلاء ، والجموع كانوا يكرهون القواد البرابرة والصقالبة .

لكن هؤلاء جميعًا كانوا لا يظهرون مشاعرهم ، ويعيشون فى هدوء طالما كان الحاكم قويًا ، فلما ضعف الحكام أو تنازعوا على السلطة ، لم يكن أمام هذه الفئات إلا الانضمام لأى ثورة تقوم حسبما يتفق مع مصالحها [١] من هنا يمكن القول بأن القوة الاجتماعية التى استند إليها الأمويون والعامريون ، كانت غير متماسكة ، ومن ثم انهارت ، وانهار معها بنو أمية عند أول صدمة، وكانت هذه الصدمة داخلية ؛ ولم تكن نتيجة غزو خارجى ، بل أنها نبعت من تناقضات ، ونقائص ، وعيوب النظام الذى اتبعه بنو أمية وبنو عامر فى حكم البلاد ، والتى أشرنا إليها ، تلك التناقضات التى كانت كامنة، ولم تظهر إلا عندما تراخت قبضة الحكام .

فعبد الرحمن شتجول لم يكن فى قدر أبيه أو أخيه ، وهشام المؤيد استطاب الحياة الهادئة ، وعزف عن توجيه الأُمور ، وتركها لبنى عامر ، لذا ظهرت عيوب النظام وأدت إلى انهياره وقيام نظام دول الطوائف ، ومما جسم من تلك العيوب الاجتماعية طبيعة الشعب الأندلسى ، وتكوينه العنصرى وطبيعة البلاد الجغرافية فقد كان هذا الشعب يحتوى على عناصر مختلفة من عرب وبربر وصقالبة وأهل البلاد الأصليين سواء كانوا مسلمين أم نصارى صحيح أن المصاهرة ، والمجاورة قربت بين تلك العناصر إلا أنه بقى من مظاهر التنافس ما يكفى لقيام الصراع فيما بينها إذا ما حانت الفرصة ساعدها على ذلك الطبيعة الجغرافية وتفتت البلاد إلى أودية تحجز بينها جبال تزخر بالعديد

---

(١) ابن خلكان - المصدر نفسه جـ ٤ ص ٤٠٧ .

من الحصون ، والقلاع تحمى الثوار وتساعدهم ضد الحكومة المركزية [١] ، فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الناس أنفسهم لأصبح الأمر واضحًا ، فقد وصف البعض عامة قرطبة بالذات بأنهم أكثر الناس فضولاً ، وأشدهم شغبًا حتى أنهم كانوا يقاتلون مع هذا ثم يقتتلون ، معه وربما فى نفس اليوم معرضين أنفسهم للهلاك ، ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بصغر الأحلام ونقص العقول ويعلل المقرى ذلك ؛ بأن أهل الأندلس يميلون إلى مساندة كل شعور قوى أراد الوصول إلى السلطان وأنهم كانوا يجرون وراء كل ناعق ، وأن أهل المشرق أصوب رأى منهم فى مراعاة نظام الملك حتى لا يحدث الخلل الذى يؤدى إلى اختلال الأوضاع ، وفساد الأمور [٢] .

وكل هذه العوامل مجتمعة قد أسهمت فى تدهور الأحوال فى الأندلس ، وقد عاشت عصر ملوك الطوائف التى عاصرها صاحب المخطوط ، وإننا سوف نشير إليها فى عاجلة تاريخية بهدف إلقاء الضوء على المناخ السياسى .

٩ - عصر ملوك الطوائف :

يمتد فى الفترة من ٤٢٢ هـ ، إلى ٤٨٤ هـ ، وهو عصر يموج بالاضطرابات والفوضى والصراعات القبلية .

وقد أطلّت الطائفية برأسها بعد انتهاء الخلافة الأموية فى الأندلس ، فاستقل كثير من الأمراء بالمدن التى كانوا يحكمونها ، ومقاطعاتهم التى كانت بحوزتهم فضلاً عن حركات الاستقلال التى سبقت عصر ملوك الطوائف ، وقد بلغ عدد هؤلاء عشرين أسرة حاكمة .

وقد سيطر البربر على ممالك الجنوب بينما خضع الشرق للصقالبة ، وتفرق فى باقى المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون [٣] .

---

(١) لين بول . المرجع نفسه ص ١٤٧ .

(٢) ابن حزم « مداوة النفوس » ص ١٩ ، ابن حوقل « صورة الأرض » ص ١٠٦ ، المقرى « نفخ الطيب » جـ ٢ ص ٧٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٣) ليفى بروفنسال « الإسلام فى المغرب والأندلس » ص ١٢٢ .

ومن أهم إمارات هذا العهد : إمارة بنى عباد بإشبيلية التى كونها القاضى محمد بن عباد لنفسه ، وذريته ، وتغلب على قاسم بن حمود .

فقد أراد قاسم هذا أن يضم إشبيلية إلى مالقة التى مكن لنفسه فيها ، ولكن بنى عباد انتصروا عليه .

وقد استمرت إمارة بنى عباد بإشبيلية من سنة ٤١٤ إلى نهاية عهد ملوك الطوائف حيث فتحها المرابطون ، وخلال قيام إمارة بنى عباد استطاعت هذه الإمارة أن تضم لها بعض الإمارات الأخرى الصغيرة مثل :

إمارة بنى حمود بالجزيرة	٤٣١ - ٤٥٠
إمارة روندة	٤٠٥ - ٤٤٥
إمارة موردن	٤٠٤ - ٤٤٥
إمارة أركس	؟ - ٤٤٥
إمارة ولته وشلطيش	؟ - ٤٤٣
إمارة نبله	٤١٤ - ٤٤٣
إمارة بنى فرين بشلب	٤١٩ - ٤٤٤
إمارة شنت مارية الغرب	٤٠٧ - ٤٤٤
إمارة مارتله	؟ - ٤٣٦
إمارة بنى جهود بقرطبة	٤٢٢ - ٤٦٩

ويقول المقرى [١] : وقد استفحل أمر المعتمد بن عباد بإشبيلية فاستولى على قرطبة من بنى جهور ، وجعل عليها ولده ، ثم كانت له ، وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على من هناك من ملوك الطوائف .

---

(١) نفخ الطيب جـ ١ ص ٢٠٧ .

وهناك إمارات أخرى لم تخضع لبنى عباد ، وظلت مستقلة حتى اقتحمها المرابطون ، أو استولى عليها المسيحيون ، وهى :

إمارة بنى حمود بمالقة	٤٠٧ - ٤٤٩
إمارة بنى زيرى بغرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
إمارة بنى رزين بالسهلة	٤٠٢ - ٤٩٧
إمارة بنى القاسم بالفنت	؟ - ٤٨٥
إمارة بنى الأفطس فى بطليوس	٤١٣ - ٤٨٧
إمارة بنى ذى النون بطليطلة	٤٠٠ - ٤٧٨
إمارة العامرين ببلنسية	؟ - ٤٩٥
إمارة بنى هود بسرقسطة	٤١٠ - ٤٣٦ الفتح المسيحى .

وأغلب ملوك الطوائف لا يستحقون الذكر ، وأكثرهم جاء وليد الضعف أو المصادفات [١] ، وليس إلا بنو عباد هم الذين يستحقون أن نقف عندهم ، ونعدد ملوكهم، فهم الذين حاولوا ضم الشعث ، وبعث الحياة من جديد فى الدولة المتجهة للأفول ، وهذا ثبت ملوكهم :

القاضى محمد (الأول) بن إسماعيل بن قريش بن عباد ٤١٤ .

عباد المعتضد بن محمد	٣٣٤
محمد الثانى المعتضد بن عباد	٤٦١ - ٤٨٤

وفتحها بعد ذلك المرابطون كما فتحوا باقى الإمارات كما سيرد فيما بعد .

ومن الواضح أن أكثر إمارات الطوائف بدأت قبل سقوط الخلافة الأموية ، إذ إن هذه الخلافة كانت ابتداء من القرن الخامس الهجرى اسمية فقط ، ولم

---

(١) عن ملوك الطوائف اقرأ « معجم الأنساب » و« الأسرات الحاكمة » ص ٨٦ - ٩٢ .

يكن لها سلطان يعتد به ، وقد ادعى بعض الأمراء لأنفسهم « الخلافة » ، وادعو تبعًا لذلك ألقاب الخلافد كالمعتضد والمعتمد [١] .

● أهم مظاهر عصر الطوائف

يصور لنا Stanley Lane Pool هذا العصر تصويرًا دقيقًا فيه عظة لمن يتعظ ، وفيه ضوء لمن يحب أن يعيش فى النور ، ونقتبس منه بضعة سطور قال : تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة فى الوقت الذى وجد فيه الفونس السادس تحت إمرته استرباس وليون وقشتالة فقد عرف الفونس ما يجب أن يفعله تمام المعرفة ، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله لملوك الطوائف مدًا كافيًا ليشنقوا به أنفسهم ، لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا فى العواقب ، ولم يعنوا إلا بأنفسهم ، ولم يتركوا جهدًا دون أن يبذلوه لإضعاف منافسيهم ، وكانوا يجثون عند قدمى الفونس ؛ لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين ، وتقريب كل الدويلات الإسلامية إلى الفونس بتقديم الإتاوات ، وكان الفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته لأنها ثمن عطفه، وحمايته ، وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات بالاستعانة بجيوش الفونس ضد بعضهم البعض ، وكان ألفونس يقدم خطوطه فى كل فرصة ، ويستولى على الحصون ، والقلاع واحدة إثر واحدة حتى وثب وثبة استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ، وقد أحدث بوثبته هذه فزعًا كبيرًا فى صفوف المسلمين بأسبانيا [٢] ، وقد أذن ذلك بدعوة المرابطين لإنقاذ أسبانيا من الزحف المسيحى بعد أن عجز الأمراء عن أن يوحدوا صفوفهم ، ويتعاونوا على صد هذا العدوان .

وهكذا أسدل الستار على أسوأ فترات الأندلس ، والتى كانت بمثابة تهيئة

---

(١) عن ملوك الطوائف اقرأ « العبر » لابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٥ ، وما بعدها .

(٢) الأستاذ العبادى المجمل فى « تاريخ الأندلس » ص ١٧٢ ، د . شلبى :« التاريخ الإسلامى »، جـ ٤ ص ٨١ - ٨٦ .

للنفوس الإسلامية التى تنظر إلى هذا الفردوس نظرة إجلال وتقدير لكن النفوس المريضة بحب الذات قد طغت أنانيتها حتى وصلت البلاد إلى هذه الحال سالفة الذكر .

وسوف نعرض الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ؛ أملاً فى إعطاء مزيد من الرؤية الواضحة لعصر صاحب المخطوط ما يكون عونًا على تناول ما تضمنه هذا المخطوط .

* * *

الحالة الاقتصادية

● أولاً : الزراعة :

تمتاز جزيرة الأندلس بالتربة الخصبة ، وبالمياه الوفيرة ؛ نظرًا لكثرة الأنهار وما أقيم عليها من جسور ، وما تفرع منها من جداول بالإضافة إلى ذلك مناخ الجزيرة المعتدل . كل هذا أدى إلى تقدم الزراعة ، وتنوعها حيث وجد بها كثير من الغلات الزراعية ، منها :

١ - الحبوب :

اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والأرز ، وتعتبر الحبوب من المواد الضرورية التى يخزنها السكان فى سراديب خاصة تكون مؤونة لهم عند الحاجة ؛ نظرًا لكثرة الحروب فى الأندلس سواء الداخلية [١] ، كما وضحت ذلك فى مستهل هذا الفصل - أو الحروب الخارجية مع الفرنج ، وأشهر المدن فى إنتاج الحبوب : هى : (طركونة - وبرشلونة ، وسرقسطة) [٢] ، ويساعد

---

(١) القزوينى « آثار البلاد وأخبار العباد » ص ٥٤٥ ، الحميرى « الروض المعطار » ، ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ ، مؤلف مجهول « جغرافية الأندلس وتاريخه » ، ص ١٥٧ .

على زيادة إنتاج الحبوب وجود الأرحاء - التى تدار بالماء الذى يتساقط من المرتفعات - لطحن الحبوب ، ويكثر وجودها فى مدينة - طركونة) ، و(وحصن يلوية بوشقة) ، وفى مدينة (تطيلة) (١) .

٢ - الحاصلات الزراعية الأخرى :

نجح المسلمون فى الأندلس فى زراعة بعض النباتات التى لا تنمو إلا فى البلاد الحارة كالقطن والكتان وقصب السكر فى بعض جهات الأندلس ، وصقلية (٢) .

وعنى أهل الأندلس بالقطن ، والكتان ؛ لحاجة البلاد لصناعة الملابس ، ويعتبر الزيتون من المحاصيل الهامة الذى يكثر إنتاجه فى مدينة (أفراغة) ، ومنطقة حسن (مربيطر) القريبة من (طرطوشة) ، وفى إقليم (سرقسطة) ، وفى منطقة حصن (يلوية) بمدينة (وشقه) (٣) .

٣ - الفاكهة :

تكثر زراعة البرتقال والكمثرى والتفاح والتين والعنب والرمان فى أنحاء البلاد ، والخوخ تكثر زراعته فى السهول ، ويزرع الموز فى وديان البحر الأبيض المتوسط ، ويحدثنا « المقرى » فى « نفح الطيب » عن الفاكهة فى الأندلس فيقول : « فواكهها تتصل طول الزمان ، فلا تكاد تعدم كما أن الثغر وجهاته ، والجبال التى يحفها برد الهواء

---

(١) العذرى « نصوص عن الأندلس » ، ص ٥٦ ، الحميرى « الروض المعطار » ، ص ١٢٦ .

(٢) Heyd, w, :"Histoire du commircedu levant au moyenagae " 2vols (leipzig 1925) , 1 - p . 50

(٣) العذرى : « نصوص عن الأندلس ، ٥٦ ، ياقوت : « معجم البلدان » : ١/ ٢٢٧ ، الحميرى: « الروض المعطار » ، ١٨٠ ، ١٨١ .